

مقدمة:

إن استرجاع التراث ظاهرة عرفها أدبنا العربي عبر عصوره المختلفة، فنزوع المرء إلى الماضي إحساس متأصل فيه بقدر حاجته لمعايشة الحاضر، و حساسية الشاعر المفرطة اتجاه الحياة تجعله أكثر الناس ارتدادا للماضي، الذي تختزله كلمة التراث، التراث الذي يعد من أهم منابع التي يغترف منها الشاعر مواد و أدواته الفنية، وهذا عبر القراءات الواعية و الاستيعاب الجيد، و وفق آليات و تقنيات متنوعة تختلف من شاعر لآخر، ذلك أن النص الشعري ليس عالما مغلقا على ذاته بل له امتدادات عميقة داخل سياقاته الخارجية المحيطة به (الاجتماعية، التاريخية الثقافية...).

و لما كان الشاعر الأندلسي بحكم أصوله المشرقية من جهة و طبيعة بيئته الجديدة من ناحية أخرى أكثر تهيئا للدخول في علاقة تأثير و تأثر، الأمر الذي، دفعني إلى دراسة مثل هذه الظاهرة، أي ظاهرة (التناص intertextualité) عند وجه من الوجوه الشعرية الأندلسية البارزة بقوة في نصوصهم الشعرية أما الشاعر فهو (ابن دراج القسطلبي) و أما العنوان الذي اخترته فهو (التناص في شعر ابن دراج القسطلبي الأندلسي).

و قد جاء اختياري لهذا الموضوع لتلبية لعدة أسباب نوجزها فيما يلي:

أ- اعتبار بعض الدارسين أن ما ورد في شعرنا القديم من إشارات تراثية كان محصورا في إطار صيغة (التعبير عن التراث)، بمعنى أن الشاعر العربي القديم لا يتعدى تعامله مع التراث في تسجيل عناصر و معطياته من دون أن تكون هناك خصوصية في التعامل مع هذا التراث .

ب- عزوف الطلبة الجامعيين عن التوجه إلى المتن الشعري الأندلسي لأسباب قد يكون أهمها عدم إطلاعهم على هذا المتن.

ج- تلك الأحكام النقدية القائمة على القول بتبعية الشاعر الأندلسي للشاعر المشرقي، و جعله نموذجا مكررا له، و لعل مرجع ذلك لعدم انطلاق هذه الأخيرة من فكرة أن النص لا يولد من فراغ.

إنما هو تجميع لعدة نصوص ترسبت في النفس بفعل القراءة، ثم إنسابت على لسان الشاعر مشكلة نصا نهائيا ننسبه لقائله.

د-تركيز الدراسات السابقة على تناول الموضوعات التقليدية في مدونة شاعرنا ابن دراج القسطلي، و عدم بحثها في علاقة التأثير لديه وهذا على الأقل في حدود ما وقع بين أيدينا من دراسات حول الشاعر.

و نشير هنا إلى مقال الدكتور (عبد الرحمان عطية) حول (استلهام التراث في شعر ابن دراج القسطلي)، الذي برغم المجهودات المبذولة- فإنها لم تتجاوز تسجيل النصوص المتأثر بها في شعر شاعرنا.

ه- اعتقادي أن مجال البحث في الأدب الأندلسي لا يزال بكرا، لغنى هذا التراث من جهة، كما أنه يعد وجها من وجوه تاريخ مغربنا العربي من جهة أخرى أيضا.

و- ذلك الحضور اللافت لنصوص التراث العربي الإسلامي في مدونة الشاعر إذ لا تكاد تخلو أية قصيدة من قصائده من إشارات قرآنية أو حديثية أو شعرية أو تاريخية.

كل هذه الأسباب مجتمعة، مع رغبتي في تناول موضوع يربطنا بشخصيتنا و بتراثنا المغربي عن طريق أحد الوجوه الإبداعية التي تبدو إلى حد ما غير معروفة لدى أوساط الطلابية. دفعتني إلى تقديم هذا البحث، يضاف إليها رغبتي في الكشف عن خصائص أحد المتون الشعرية الأندلسية.

و سيكون في اهتمام هذا البحث بيان أهمية ظاهرة التناص في عملية الإبداع، كما سيحرص على استكشاف مواطنها عند شاعرنا ابن دراج.

لقد كان على الباحث أن يجيب على أسئلة عديدة: ما هي الدواعي التي حدث بالشاعر إلى أن تتداخل نصوصه مع غيرها من النصوص القرآنية و التراثية بهذا الشكل اللافت؟ و ما هو الجانب الذي بدا مستأثرا باهتمامه أكثر؟ و ما هي الأهداف التي يرمي إليها هذا المنحى؟

و للإجابة على هذه الأسئلة، لم يتبع البحث منهاجاً معيناً التزم به من البداية إلى النهاية. و إن كنا نرى أن طبيعة البحث تقتضي منهاجاً جمالياً فنياً تحليلياً، غير أن هذا لم يمنعني من تطعيم البحث ببعض الإجراءات اللسانية كالبنوية و السيميائية.

أما عن مخطط بحثي هذا فإنه يقوم على ثلاثة فصول تتقدمها مقدمة و مدخل تنتهي بخاتمة، و قد جاء المدخل بمثابة العتبة التي منها نلج إلى دواخل البحث. إذا توقفنا فيه أمام ترجمة حياة الشاعر لأن من شأنها أن تساعد على التعرف على الشروط التاريخية و الذاتية التي جعلت تجربة هذا الشاعر متفردة.

ثم جاء الفصل الأول الذي خصصته للحديث عن التناص من حيث المفهوم و التطور، و هو ما استغرق الجانب النظري من البحث، الذي تم فيه رصد المفاهيم و الاصطلاحات التي وضعت له، ثم تتبع تطوره التاريخي و كيف أصل له النقاد السيميائيون من أمثال (باختين، كريستيفا، بارت، جينيت...) ثم قمت بربط هذا الاصطلاح بأصول الدرس البلاغي العربي القديم فيما كان يعرف في باب السرقات الأدبية ب: (الاقتباس، التضمين، المعارضة....) ثم و قفت عن بعض إسهامات النقاد العرب المعاصرين في هذا الميدان.

من أمثال (محمد مفتاح ، سعيد يقطين ،محمد بنيس،عبدالملك مرتاض، إبراهيم رمانى...).

يلي هذا الفصل الثاني الذي اخترت أن يكون للتناص الديني عند ابن دراج، و قد بدأته بالتناص مع النص القرآني، ثم أتبعته بالتناص مع نص الحديث النبوي، يليه التناص مع السيرة أحداثاً و شخصيات، ثم ختمته بالتناص مع الفقه الإسلامي، و بينت كيف كان النص الديني رافداً من أهم الروافد التي تضمن للنص الشعري الخلود و تزيد لغته رونقاً و بهاءً.

ثم ختمت بالفصل الثالث الذي تناولت فيه تداخل النص الشعري الدراجي مع التراث بقسميه: أما القسم الأول فخصصته للتناص مع التاريخ العربي و الإسلامي ، أما القسم الثاني فتناولت فيه تداخل نصوص الشاعر مع النص الشعري القديم ، و كانت المعارضة فيه حاضرة بوضوح، ثم تناولت تأثير الشاعر ببعض أعلام الشعر العربي في عصوره المختلفة .

وأنهيت بحثي بخاتمة أجملت فيها بعض النتائج التي خلص إليها البحث . و قد أعتد البحث على عدة مصادر و مراجع يمكن أن نصنفها كما يلي:

- ديوان الشاعر ابن دراج القسطلبي ، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور محمود علي مكي .
- بحوث ومقالات تناولت موضوع التناص و مسته بشكل أو بآخر .
- مؤلفات نقدية عربية قديمة تناولت بعض المفاهيم المتعلقة بالتناص.

وإذا كان لكل بحث علمي صعوبات تعترض طريقه، وكان من الواجب الوقوف ولو على البعض منها ، فإنني لست أذكر منها سوى :

صعوبة المادة الشعرية وغازاتها (174) قصيدة تتضمن (6050) بيتا، وبعد مسافتها الزمنية ، إذ أن كثيرا من المفاهيم والدلالات الشعرية التي أقامها الشاعر على أحداث وأمكنة وظواهر بيئية أندلسية اندثرت أو - قل - إن المؤرخين والنقاد لم يتناولوها بالشرح والتوضيح، وهذا ما عسر علي عملية استرسال القراءة والبحث، إذ كنت أرجع بين الفينة والأخرى للبحث والتنقيب عن معنى من المعاني الغامضة والمبهمة. إذ وقفت حقيقة على مقولة ابن شهيد الشهيرة في شاعرنا المعروف ب«بغيته للمعني ، وترديده وتلاعبه وتكريره ، وراحته بما يتعب الناس ، وسعة نفسه بما يضيق الأنفاس».

وفي الختام لا يسعني إلا أن أقدم بين يدي هذا البحث جميل شكري وخالص اعترافي لأستاذي المخلص الدكتور بشير تاوريريت على احتضانه هذا العمل ، ولأنه لم يبخل علي بنصائحه وتوجيهاته ، كما أتقدم بخالص شكري إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد في انجاز هذا البحث .